الدرس الثلاثون

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه وتستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا اللهُ وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ؛ صلى الله وسلَّم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين .

قال الإمام الأواب شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله وغفر له وللشارح والسامعين في كتابه «أصول الإيمان» :

باب التَجَوُّز في القول وترك التكلف والتنطع

وعَنْ أَبِي أُمَامَةَ رضي الله عنه مرفوعا: ((الْحَيَاءُ وَالْعِيُّ شُعْبَتَانِ مِنْ الْإِيمَانِ ، وَالْبَذَاءُ وَالْبَيَانُ شُعْبَتَانِ مِنْ النِّفَاقِ)) رواه الترمذي .

****

قال المؤلف رحمه الله تعالى: ((**باب التَجَوُّز في القول وترك التكلف والتنطع**))؛ التجوز في القول : هو الاختصار. وترك التنطع والتكلف فيه هو البعد في القول بأن يتوسع الإنسان في الكلام ويتقعر في الحديث ويطيل الكلام فيما لا حاجة إليه ولا داعي إليه .

والمصنف رحمه الله تعالى عقد هذه الترجمة وجعلها في خاتمة كتابه أصول الإيمان منبهًا بذلك الدعاة إلى أصول الإيمان وأسس الدين وقواعد الإسلام أن يكون همُّ الواحد منهم إبلاغ دين الله تبارك وتعالى وإيصاله للناس بالكلمات المختصرة والألفاظ القليلة وجوامع القول ، لا أن يكون همُّ الإنسان كثرة الحديث والتوسع في القول والتقعر في الكلام ، بل الكلام القليل المفيد خيرٌ من الكلام الكثير الذي ليس من ورائه طائل ، وخير الكلام ما قلَّ ودل ؛ تكون ألفاظه قليلة ومعانيه دالة على المقصود بأبين ما يكون . وقد أوتي نبينا صلى الله عليه وسلم جوامع الكلم وكان يتجوز في الكلام يختصر في الكلام ، ولو شاء من سمع كلامه صلوات الله وسلامه عليه أن يعد حديثه لعدَّه . فهذه الترجمة جاءت في خاتمة كتاب أصول الإيمان منبهًا بها المصنف رحمه الله تعالى على أهمية مراعاة التجوز والاختصار في القول ، وأن يكون مقصود الداعي إلى الله تبارك وتعالى والمبلّغ لدين الله تبارك وتعالى أن يعرف الناس الحق ، لا أن يُعرف هو بكثرة الكلام والتوسع فيه ؛ فإن هذا من الأغراض المنافية للإخلاص لله تبارك وتعالى في العلم وتعليمه .

وأورد رحمه الله في هذه الترجمة جملة من النصوص الدالة على هذا المقصود ، وبدأها بحديث أَبِي أُمَامَةَ الباهلي رضي الله عنه مرفوعا إلى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قَالَ : ((**الْحَيَاءُ وَالْعِيُّ شُعْبَتَانِ مِنْ الْإِيمَانِ، وَالْبَذَاءُ وَالْبَيَانُ**

شُعْبَتَانِ مِنْ النِّفَاقِ)) ؛ قوله «الحياء» الحياء معروف وهو شعبة من شعب الإيمان وهو خُلُق جميل يكون في العبد يحجزه عن الأمور الرذيلة والأعمال السيئة . والعي: في الأصل المراد به عدم القدرة على البيان وعدم القدرة على القول وعدم القدرة على الإفصاح عن الأمور وبيانها ، وليس هذا هو المراد هنا ، وإنما المراد بالعي: أن يكون حال الإنسان في قلة كلامه وقلة حديثه وتجوُّزه في القول واختصاره فيه وخوفه من الخطأ إذا قال أو تكلم أو تحدث فتكون حاله كحال من به عي أي عدم قدرة على الكلام ، وهو قادرٌ على الكلام وقادر على البيان ولكنه يختصر الكلام اختصارا ويقلل من الحديث حتى كأنه به عي أي عدم قدرة على البيان والإفصاح في القول ، وليس فيه عي حقيقةً وإنما الذي به خوف الله عز وجل ومراقبة الله جل وعلا ، فيتكلم الكلام وهو خائف ، ويعُد كلامه من عمله الذي سيحاسبه الله تبارك وتعالى عليه يوم القيامة ؛ فيختصر الكلام ويتجوز في الحديث ويراقب الله سبحانه وتعالى في كلامه كما يراقب الله سبحانه وتعالى في أعماله الأخرى .

قال: **((الْحَيَاءُ وَالْعِيُّ شُعْبَتَانِ مِنْ الْإِيمَانِ))** أي خصلتان من خصال الإيمان وشعبتان من شعبه ، والمراد بذلك: أن الإنسان يحفظ كلامه ويحفظ قوله ولا يكون من أهل الثرثرة والإكثار من القول والإكثار من الكلام ، «ومن كثر كلامه كثر سقطه ، ومن كثر سقطه النار أولى به» ،كما جاء بذلك الأثر عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

قال: **((وَالْبَذَاءُ وَالْبَيَانُ شُعْبَتَانِ مِنْ النِّفَاقِ))** البذاء أي في القول ؛ بأن يقول الإنسان وكلامه بذيئا وألفاظه بذيئة أي نابية وسيئة وقبيحة ولا يراعي تهذيب القول واختيار اللفظ الطيب السليم .

قال: **((وَالْبَذَاءُ وَالْبَيَانُ))** البيان المراد به الإفصاح عن القول وحسن إيضاح الأمر ، وساقه هنا مساق الذم قال ((من النفاق)) ، وليس المراد بأن البيان من القول أي البيان الذي يحصل به الدلالة على المقصود وإيصال الحق والخير للناس بالألفاظ البينة والكلمات المتينة السديدة ليس هذا هو المراد ، وإنما المراد بالبيان أي التفاصح في الكلام والتوسع في القول والتقعر في الكلام والتظاهر بالفصاحة في المنطق والحديث وحُسن الإيضاح والبيان فهذا من النفاق ، إذا كان غرض المتكلم بكلامه وحديثه أن يُظهر للناس أنه فصيحًا وأنه حسن البيان وأنه جميل القول وأن كلامه أحسن الكلام وأفصحه وأبينه ، فمن كان حديثه كذلك فهذا من النفاق ؛ يطيل الكلام ويتوسع في الحديث ويتخير أنواع الألفاظ لا لشيء إلا ليُمدح بفصاحته وحسن ألفاظه وجمال أقواله ونحو ذلك .

قال رحمه الله تعالى :

وعن أبي ثعلبة رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ((إِنَّ أَحَبَّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحَاسِنَكُمْ أَخْلَاقًا ، وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي مساوئكم أخلاقاً؛ الثَّرْثَارُونَ الْمُتَشَدِّقُونَ الْمُتَفَيْهِقُونَ)) رواه البيهقي في شعب الإيمان .

****

ثم أورد رحمه الله تعالى حديث أبي ثعلبة رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ((**إِنَّ أَحَبَّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحَاسِنَكُمْ أَخْلَاقًا**)) وهذا فيه بيان حُسن الخلق وأهميته في حياة المسلم ، وأن أحاسن الناس أخلاقا هم الأرفع درجات يوم القيامة والأقرب منزلة إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وأن العبد كلما حسن خُلقه ارتفعت درجته وعلت منزلته ، كما قال نبينا عليه الصلاة والسلام ((إن أحبكم إلي وأقربكم مني)) أي منزلة يوم القيامة ؛ فهذا يدل على أن حسن الخلق فيه رفعة الدرجات وعلو المنازل يوم القيامة ، وأن العبد بحسن خلقه يقرب من النبي صلى الله عليه وسلم يوم القيامة بحسب ما يكون عليه من تحقيقٍ وتكميلٍ وتتميم لحسن الخلق .

قال: ((**وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي مساوئكم أخلاقاً**)) أي أهل الأخلاق السيئة ، وهذا فيه أن الخلق ينقسم إلى قسمين: خلق حسن وخلق سيء ، قد ثبت عن النبي عليه الصلاة والسلام في دعائه أنه قال: «اللهم اهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت ، واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت» ، قال هنا ((وإن أبغضكم إلي وأبعدكم مني مساوئكم أخلاقا)) أي أهل الأخلاق السيئة والأخلاق الذميمة فهؤلاء أبعد الناس منزلة ومكانة عن النبي صلى الله عليه وسلم وهم أبغض الناس إلى النبي صلوات الله وسلامه عليه .

ثم ذكر شيئا من صفات أهل الأخلاق السيئة وبعض صفات أهل الأخلاق السيئة فقال عليه الصلاة والسلام: ((**الثَّرْثَارُونَ الْمُتَشَدِّقُونَ الْمُتَفَيْهِقُونَ**)) وهذا هو المقصود من إيراد المصنف رحمه الله تعالى لهذا الحديث في هذه الترجمة . قال «الثرثارون المتشدقون المتفيقهون» والمراد بهذه الكلمات التأكيد على معنى واحد وهو: التوسع والتقعر في الكلام والحديث في غيرما حاجة ؛ فالثرثرة في كثرة الكلام والتوسع في القول يقال "فلان ثرثار" أي كثير الكلام قال الثرثارون . «والمتشدقون» أي من يحرك شدقه كثيرا بالكلام والحديث فيما لا طائل فيه . «والمتفيقهون» أي يفتح فمه ويفغر فاه في الكلام والحديث .

فهذه الكلمات الثلاث كلها تدور حول كثرة الكلام وكثرة الحديث وكثرة القول والولع بذلك فيما لا فائدة فيه ولا طائل من ورائه ؛ فمن كان كذلك فهو من أهل الخصال والخلال الذميمة والأخلاق السيئة ، فالمؤمن يحسب لكلامه حسابا ويعد كلامه من عمله الذي يحاسبه الله تبارك وتعالى عليه . ولهذا قال عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح ((من كان يؤمن بالله واليوم الاخر فليقل خيرا أو ليصمت)) . ويبلغ الكلام مبلغه الخطير عندما يكون كلاما في دين الله جل وعلا وخوضًا في شرع الله تبارك وتعالى وإطالة للقول والحديث في ذلك عن غير علم وبصيرة في دين الله تبارك وتعالى مما يترتب على كثرة القول في ذلك كثرة القول على الله سبحانه وتعالى بلا علم ؛ وهذا من أعظم المحرمات وأكبر الآثام .

قال رحمه الله تعالى :

وللترمذي نحوه عن جابر رضي الله عنه .

****

قال ((**وللترمذي نحوه عن جابر رضي الله عنه**)) أي نحو حديث أبي ثعلبة ، وحديث أبي ثعلبة في سنده شيء من الانقطاع أو في سنده انقطاع ، وأشار المصنف أنه قد جاء عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما حديثا نحو حديث أبي ثعلبة مشيرا بذلك إلى أنه شاهدًا لهذا الحديث يتقوى الحديث به ، والحديث له شواهد منها حديث جابر الذي أشار إليه المصنف وأحاديث أخرى يتقوى بها الحديث ويرتقي إلى درجة الاحتجاج به .

قال رحمه الله تعالى :

وعَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ((لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَخْرُجَ قَوْمٌ يَأْكُلُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ كَمَا تَأْكُلُ الْبَقَرُ بِأَلْسِنَتِهَا)) رواه أحمد وأبو داود والترمذي .

****

ثم أورد رحمه الله تعالى حديث سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ((**لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَخْرُجَ قَوْمٌ يَأْكُلُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ كَمَا تَأْكُلُ الْبَقَرُ بِأَلْسِنَتِهَا**)) ؛ يأكلون بألسنتهم أي يجعلون الكلام الذي يقولونه بألسنتهم والعلم الذي يبينونه بألسنتهم غرضًا للأكل وغرضًا للطعام ، فيكون غرضه بكلامه وبيانه الأكل والطعام ، فيتكلم ليأكل ، ويبين العلم وغرضه من هذا البيان أن يأكل به وأن يكون وسيلة أكل له هذا غرضه به ، ليس غرضه بالعلم نشر الدين وبيانه للناس وتعليم الناس ما يجهلون من أمر دينهم ليس هذا غرضه، وإنما غرضه بالعلم أن يأكل به ؛ فهذا الصنف من الناس أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن الساعة لا تقوم حتى يوجد في الناس من هو كذلك ، قال : ((لا تقوم الساعة حتى يخرج قوم يأكلون بألسنتهم كما تأكل البقر بألسنتها)) وهذا فيه ذم لمن كان غرضه في طلبه للعلم الدنيا والأكل ونحو ذلك . ومن صفة هؤلاء التفاصح في الكلام وكثرة القول وإظهار النفس عند الناس بالكلام البليغ وبالكلام الفصيح وبالقول الجميل ويكون غرضه من ذلك كله أن يأكل بلسانه .

قال رحمه الله تعالى :

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما مرفوعاً : ((إِنَّ اللَّهَ يَبْغَضُ الْبَلِيغَ مِنْ الرِّجَالِ الَّذِي يَتَخَلَّلُ بِلِسَانِهِ كَمَا تَتَخَلَّلُ الْبَقَرَةُ بلسانها)) رواه الترمذي وأبو داود .

****

ثم أورد رحمه الله تعالى هذا الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : ((**إِنَّ اللَّهَ يَبْغَضُ الْبَلِيغَ مِنْ الرِّجَالِ الَّذِي يَتَخَلَّلُ بِلِسَانِهِ كَمَا تَتَخَلَّلُ الْبَقَرَةُ بلسانها**)) ؛ هنا ليس الذم للبلاغة مطلقا من حيث هي ، لأن الكلام

البليغ الحسن الطيب الذي يوضَّح به المقصود وتبيَّن به المعاني العظيمة بحيث يفهم الناس ويعرفوا الحق ويهتدوا إلى الصواب هذا أمرٌ يحمد ولا يذم عليه الإنسان ، لكن إذا كان الغرض والمقصد هو البلاغة نفسها والظهور بها ، أن تكون هي المقصودة لا تكون وسيلة لبيان الحق وإيضاحه وإنما تكون البلاغة هي المقصودة وهي الغاية المطلوبة بحيث يتكلم الإنسان وغرضه أن يُعرف بالبلاغة وأن كلامه كلامٌ بليغ وقوله قول فصيح ؛ فيتكلم ويأتي بالكلام البليغ الجميل الحسن وغرضه من ذلك أن يظهر في الناس ببلاغة كلامه وجمال ألفاظه فهذا الذي يُذم .

قال : ((**إن الله عز وجل يبغض البليغ من الرجال الذي يتخلل بلسانه كما تتخلل البقرة بلسانها**)) ؛ ولاحظ هنا وجه شبهٍ عجيب بن هذا وبين البقرة عندما تتخلل بلسانها ، فالبقرة تحرك لسانها حركة كثيرة وتكثر من حركة اللسان لكن هذه الحركة التي تكثر على لسان البقرة ليس من ورائها جدوى وليس من ورائها ثمرة ولا ينتفع بها بل هو لوكٌ للسان وتحريك له فيما لا ثمرة من ورائه . وهذا مثل للبليغ الذي هدفه وغرضه في كلامه ظهور بلاغته وظهور فصاحته ، فمثل هذا ليس أهلًا لأن يكون ممن يُنتفع بكلامه ويستفاد من قوله ويستفاد من حديثه ، لأنه ليس غرضه هو بيان العلم وإيضاحه للناس ، وإنما غرضه في الكلام إطالة الحديث وإكثار القول بما لا فائدة فيه ولا ثمرة . ولهذا أحيانا يقال عن بعض الحديث ويقول ذلك بعض الناس يقولون "كلام جميل جدا لكن ما استفدنا منه شيئا" يكون كلام جميل ألفاظه تشد السامع من حيث بلاغتها من حيث فصاحتها من حيث جمال ألفاظها لكن السامع لا يحصِّل فائدةً ولا يحصِّل ثمرة ، ولهذا قال من قال من أهل العلم «كلام السلف قليل كثير البركة ، وكلام الخلف كثير قليل البركة» ، وكان السلف الذي اجتمعت همتهم على بيان الحق وإيصاله للناس بأقرب طريق يختارون من الكلمات أجمعها وليس لهم غرض في الكلام نفسه ، وإنما غرضهم أن يُعرف المقصود ، فإذا عُرف المقصود بكلمتين فقط اكتفوا بها ولم يزيدوا ثالثةً ، وإن احتيج إلى كلمة ثالثة زادوها ، ليس لهم غرض في الكلام من حيث هو وإنما غرضهم أن يُفهم المقصود وأن يُعرف المراد .

قال رحمه الله تعالى :

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قال رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((مَنْ تَعَلَّمَ صَرْفَ الْكَلَامِ لِيَسْبِيَ بِهِ قُلُوبَ الرِّجَالِ أَوْ النَّاسِ لَمْ يَقْبَل اللَّهُ مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَرْفًا وَلَا عَدْلًا)) رواه أبو داود .

****

ثم أورد رحمه الله تعالى هذا الحديث وهو مبينٌ وموضح للحديث الذي قبله ، البليغ من الرجال الذي ورد ذمه في الحديث السابق وأنه أبغض الناس إلى الله تبارك وتعالى هو الذي يتعلم صرف الكلام ليسبي به قلوب الناس أو قلوب الرجال ؛ يتعلم صرف الكلام أي يتعلم بلاغة الحديث وجمال الألفاظ وحسن العبارات وغرضه من ذلك أن يسبي قلوب الرجال ، بحيث يلتفتون إليه ويشار إليه بالبنان يقال فلان بليغ هذا مراده فلان فصيح فلان ألفاظه

جميلة أو نحو ذلك من الكلمات التي هي مقصده في كلامه وحديثه . يتعلم صرف الكلام أي يفني وقتًا من حياته لتعلم البلاغة الفصاحة ونحو ذلك من أجل ماذا؟ قال : ((لِيَسْبِيَ بِهِ)) أي بكلامه وقوله ((قُلُوبَ الرِّجَالِ)) ومعنى يسبي القلوب أي يسلبها ويجذبها إليه بحيث تنشد القلوب إليه وتعجب به ويشتهر في الناس بذلك ويعرف بذلك؛ فلان بليغ فصيح مفُوهٌ ونحو ذلك من الكلمات التي جعلها غرضا له في تعلمه للبلاغة والفصاحة وتصريف الكلام.

قال : ((**مَنْ تَعَلَّمَ صَرْفَ الْكَلَامِ لِيَسْبِيَ بِهِ قُلُوبَ الرِّجَالِ أَوْ النَّاسِ لَمْ يَقْبَلْ اللَّهُ مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَرْفًا وَلَا عَدْلًا**)) وهذا فيه وعيد شديد لمن كانت حاله كذلك . وقيل في معنى «صرفا ولا عدلا» أقوال منها أي لم يقبل منه فريضة ولا نفلا .

قال رحمه الله تعالى :

وعَنْ عَائِشَةَ رضي اللَّهُ عنها قَالَتْ : «كَانَ كَلَامُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَلَامًا فَصْلًا؛ يَفْهَمُهُ كُلُّ مَنْ يسْمَعُهُ» ، وقالت : «كَانَ يُحَدِّثُ حَدِيثًا لَوْ عَدَّهُ الْعَادُّ لَأَحْصَاهُ» . وقالت : «إنه لَمْ يَكُنْ يَسْرُدُ الْحَدِيثَ كَسَرْدِكُمْ» روى أبو داود بعضه .

****

ثم أورد رحمه الله تعالى حديث أم المؤمنين عَائِشَةَ رضي اللَّهُ عنها قَالَتْ : ((**كَانَ كَلَامُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَلَامًا فَصْلًا يَفْهَمُهُ كُلُّ مَنْ يسْمَعُهُ**)) يقال قول فصل وكلام فصل أي: كلام واضح بين محقق للمقصود بحيث تفصل فيه الأمور ويكون فصلا فيها . قول فصل وكلام فصل أي: كلام بيّن واضح فاصل بالأمر محقق للمقصود والمراد فوصفت رضي الله عنها كلام النبي صلى الله عليه وسلم بأنه كلام فصل يفهمه كل من يسمعه : أي كلام يسمعه عموم الناس على كافة طبقاتهم ، الصغير يفهمه والكبير يفهمه وقليل العلم يفهمه والذكر يفهمه والأنثى تفهمه ، كل من سمعه يفهمه ؛ وهذا من كمال نصحه عليه الصلاة والسلام لأن هدفه في الكلام نصح الجميع النصيحة لعموم الناس ، قد بُعث عليه الصلاة والسلام رحمة للعالمين ، فكان صلوات الله وسلامه عليه يقول الكلام الذي يفهمه السامع يفهمه الجميع .

وهذا أمرٌ ينبغي أن يراعى في بيان الحق والهدى للناس ، عندما يبين من أراد دعوة الناس إلى الحق والهدى معاني الدين وأمور الإسلام لا يختار الألفاظ التي يحتاج من يسمعها إلى أن يراجع قواميس اللغة حتى يعرف مراد هذا المتكلم ، وإنما يختار لهم الكلمات التي يفهمون بها المقصود ويتضح بها المراد ، وقد كان شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله في بعض رسائله يكتبها بلهجة العوام، يبين لهم أصول الإيمان باللهجة العامية ويكتبها لهم باللهجة العامية ، وكان العوام إذا سألوه عن بعض المسائل أجابهم باللهجة العامية ، لأن الغرض أن يفهم الإنسان

الدين ليس الغرض أن نختار ألفاظًا وأقوالا بليغة فصيحة بقطع النظر عن أن يكون من أمامي فهم الكلام أو لم يفهمه ليس هذا هو المقصود، المقصود أن يفهم الناس دينهم وأن يعرفوا الغاية التي خُلقوا لأجلها وأوجدوا لتحقيقها. وتعجب غاية العجب عندما يشرح بعض المتكلفين للناس معنى «لا إله إلا الله» فيغرق في الحديث والألفاظ فيفهم من عنده أمورًا عديدة إلا التوحيد الذي هذه الكلمة دالة عليه ، فيفهمون أمورًا وجوانب كثيرة لكن لا يفهمون التوحيد الذي هي مدلوله ودالة عليه . فالشاهد أن المتكلم والمبين للناس ينبغي أن يكون غرضه في الكلام أن يعرف الناس الحق وأن يعرفوا الهدى والدين القويم بالألفاظ الواضحة والكلمات البينة ، لا أن يكون غرضه التفاصح وإظهار بلاغته وإظهار معرفته باللغة ونحو ذلك من المقاصد .

((**وقالت : كَانَ يُحَدِّثُ حَدِيثًا لَوْ عَدَّهُ الْعَادُّ لَأَحْصَاهُ**)) وهذا فيه تنبيه منها رضي الله عنها إلى قلة ألفاظه وكلماته عليه الصلاة والسلام ، فكانت كلماته قليله وألفاظه قليلة وقد أوتي صلى الله عليه وسلم جوامع الكلم ، فكان يتجوَّز القول ويختصر في الكلام حتى لو شاء العاد أن يعدَّ كلامه لعده . صلوات الله وسلامه عليه .

((**وقالت : إنه لَمْ يَكُنْ يَسْرُدُ الْحَدِيثَ كَسَرْدِكُمْ**)) أي أنه يأتي بالكلام سريعا سردًا لم يكن كذلك ، لم يكن يسرد الحديث كسردكم أي أنه كان صلى الله عليه وسلم يترسل في الحديث ويتأنى في الكلمات ، وتخرج الكلمات منه كلمات مترسلة ألفاظًا ثم تتلوها الألفاظ الأخرى بترسل وتؤدة ، بحيث يفهم من عنده ويضبط من عنده كلامه ، وإذا احتاج الأمر أن يعيد الكلمة مرة أو مرتين أعادها صلوات الله وسلامه عليه ؛ ولهذا جاء في أحاديث كثيرة عنه صلى الله عليه وسلم يقول الصحابة «قال ذلك ثلاثا» ، مثل قوله ((الدين النصيحة الدين النصيحة الدين النصيحة)) كررها ثلاثا صلوات الله وسلامه عليه ، وجاء عنه مثل هذا نظائر كثيرة جدا يكرر الكلمة الواحدة بألفاظها مرات ثلاث من أجل أن تُحفظ وتضبط ، وكان يترسل في الكلام أي لا يسرد الكرم سردًا بحيث لا يتمكن الإنسان من ضبطه .

ولاحظ قول عائشة «**كسردكم**» ؛ هذا أمرٌ يرجع إلى طبائع الناس ويمكن للإنسان أيضا أن يعالجه بالتدرب على ذلك ، وإلا كثير من الناس من طبيعته وعادته في الكلام أن كلامه سردا لا يترسل في الكلام ، بينما نبينا عليه الصلاة والسلام لم يكن كلامه سردا بل كان يترسل ويتأنى في الكلام صلوات الله وسلامه عليه من أجل أن يضبط الكلام .

قال المصنف رحمه الله تعالى ((**روى أبو داود بعضه**)) أبو داود روى الجزء الأول ، لأن الحديث يتكون من ثلاثة أجزاء ، كل جزء مبدوء بقوله «قالت» ؛ فالجزء الأول رواه أبو داود ، والجزء الثاني رواه مسلم ، والجزء الثالث متفق عليه .

قال رحمه الله تعالى :

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ((إذا رأيتم العبد يعطى زهداً في الدنيا وقلة منطق فاقتربوا منه فإنه يلقَّى الحكمة)) رواه البيهقي في شعب الإيمان .

****

ثم أورد رحمه الله تعالى هذا الحديث وهو حديث في سنده كلام ، قال أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ((**إذا رأيتم العبد يعطى زهداً في الدنيا وقلة منطق فاقتربوا منه فإنه يلقَّى الحكمة**))؛ إذا أعطي زهدا في الدنيا أي كان زاهدًا في الدنيا وليس همه الدنيا وليست غرضه الدنيا ، وأيضا كلامه قليل ليس من أهل الثرثرة وكثرة الكلام ؛ فجمع بين زهدٍ في الدنيا وقلةٍ في المنطق فمن كان كذلك يؤتى الحكمة ، قد جاء في بعض الآثار أن لقمان الحكيم سئل عن الحكمة التي أوتيها بأي شيء أعطيها؟ فذكر نحوًا من هذا الكلام أو قريبا منه ، فمن كان زاهدا في الدنيا قليل المنطق فهذا حريٌ أن يؤتى الحكمة ، بخلاف الذي همه الدنيا وكثير الكلام فهذا بعيدٌ عن الحكمة كل البعد .

قال رحمه الله تعالى :

وعن بُرَيْدَةَ رضي الله عنه قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : ((إِنَّ مِنْ الْبَيَانِ سِحْرًا ، وَإِنَّ مِنْ الْعِلْمِ جَهْلًا ، وَإِنَّ مِنْ الشِّعْرِ حِكَمًا ، وَإِنَّ مِنْ الْقَوْلِ عِيَالًا)) .

****

ثم أورد رحمه الله تعالى هذا الحديث وفي سنده أيضا مقال لكن لبعضه شواهد صحيحة .

قال : ((**إِنَّ مِنْ الْبَيَانِ سِحْرًا**)) مر معنا قريبا قول النبي صلى الله عليه وسلم ((والبذاءة والبيان من النفاق)) والمراد بالبيان الذي يذم هو ذلكم البيان الذي يكون غرض المتكلم هو البيان نفسه والبلاغة نفسها وأن يُعرف بالبيان والبلاغة . وهنا قال عليه الصلاة والسلام ((إن من البيان سحرا)) أي ما يسحر القلوب والعقول ويجذبها إلى المتكلم ، وهذا قد يكون خرج مخرج الذم وقد يكون خرج مخرج المدح ، بمعنى أن الإنسان إذا كان غرضه هو البيان نفسه والبلاغة نفسها وأن يسبي قلوب الرجال وعقول الرجال وليس غرضه الحق فهذا أمرٌ يذم عليه الإنسان ، أما إذا كان البيان أن يأتي ببيان الحق بالألفاظ البينة والقول الفصل والكلام الواضح الذي يجذب الناس إلى الحق ويرغِّبهم فيه فهذا لا يذم عليه الإنسان بل يحمد .

قال: ((**وَإِنَّ مِنْ الْعِلْمِ جَهْلًا**)) وهذه نظير ما جاء في هذا الحديث قول أبو يوسف تلميذ أبي حنيفة رحمهما الله قال: «العلم بالكلام جهل ، والجهل بالكلام علم» ، قال هنا: ((إن من العلم جهلا)) أي من أمور العلم التي يحرص بعض عن الناس على تعلمها وشغل الأوقات في معرفتها هي من الجهل ليست من العلم ، مثل ما قال أبو

يوسف رحمه الله قال «العلم بالكلام جهل، والجهل بالكلام علم» ، فهناك أمور تصرف الأوقات في معرفتها وتعلمها وهي نوع من الجهل وازدياد من الجهل .

قال: ((**وَإِنَّ مِنْ الشِّعْرِ حِكَمًا**)) الشعر كلام ، والكلام فيه حق وباطل ، والشعر كلامه لكنه منظوم ؛ ولهذا يأتي في الشعور أمورًا كثيرة لا فائدة فيها بل أمورًا سيئة وقبيحة ، ويأتي في الشعر حكَما بليغة وعظات مؤثرة ، فأثنى النبي عليه الصلاة والسلام على ما كان من الشعر كذلك قال ((إن من الشعر حكما)) أي بعض الشعر فيه حكمة ، وما كان من الشعر كذلك يستفيد منه الإنسان وينتفع به ، لأن من الشعر ما هو حكَم أي كلام بليغ وكلام نافع ومفيد وفيه عظة وعبرة للناس ، وما كان كذلك من الشعر يستفاد منه وينتفع به .

قال: ((**وَإِنَّ مِنْ الْقَوْلِ عِيَالًا**)) أي القول الذي يقدَّم إلى من لا ينتفع به ولا يستفيد منه ، فمن القول ما هو عيال أي من حيث مَن ألقي عليه القول وأفيد بالقول وهو ليس من أهله ولا من أهل الانتفاع به ، فهذا معنى قوله ((إن من القول عيالا)) أي على بعض الناس الذين يسمعون القول ولكنهم لا ينتفعون به . وهذا فيه التنبيه على وضع القول في غير موضعه ووضع الحديث في غير محله .

قال رحمه الله تعالى :

وعن عَمْرَو ابْنَ الْعَاصِ رضي الله عنه أنه قَالَ يَوْمًا وَقَامَ رَجُلٌ فَأَكْثَرَ الْقَوْلَ فَقَالَ عَمْرٌو رضي الله عنه : «لَوْ قَصَدَ فِي قَوْلِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُ ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : ((لَقَدْ رَأَيْتُ– أَوْ أُمِرْتُ– أَنْ أَتَجَوَّزَ فِي الْقَوْلِ، فَإِنَّ الْجَوَازَ هُوَ خَيْرٌ)) » رواهما أبو داود .

آخره ، والحمد لله رب العالمين ؛ حمداً كثيراً .

****

ثم ختم رحمه الله تعالى هذه الترجمة بهذا الحديث عن عَمْرَو ابْنَ الْعَاصِ رضي الله عنه ((**أنه قَالَ يَوْمًا وَقَامَ رَجُلٌ فَأَكْثَرَ الْقَوْلَ**)) أي سمع رجلا يتكلم وأكثر الكلام أكثر القول .

فَقَالَ عَمْرٌو رضي الله عنه : ((**لَوْ قَصَدَ فِي قَوْلِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُ**)) قصد أي توسط ، لأن القصد هو التوسط بين الزيادة والنقصان ، التوسط بين الافراط والتفريط ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ [لقمان:١٩] أي ليكن مشيك قصدا لا بالسريع الذي هو نوع من الجري والعدو ولا أيضا بالبطيء المتماوت ، بل يكن مشي الإنسان وسطًا بين السرعة والتماوت هذا هو القصد . قال ((لو قصد في قوله لكان خيرا له)) أي لو توسط وكان كلامه قصدا أي متوسطا معتدلا لكان خيرا له.

((**سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : لَقَدْ رَأَيْتُ– أَوْ أُمِرْتُ– أَنْ أَتَجَوَّزَ فِي الْقَوْلِ فَإِنَّ الْجَوَازَ هُوَ خَيْرٌ**)) ؛ أتجوز: أي اختصر القول وأن يكون قولي وكلامي مختصرا قليلا ، فإن الجواز هو خير : أي الاختصار في القول خير لأنه أنفع وأبقى للناس وأدوم للفائدة ، وكثرة الكلام ينسي آخره أوله كما جاء هذا المعنى عن عثمان بن عفان رضي الله عنه ، خطب الناس وأوجز في الكلام واختصر ثم ختم ذلك بقوله «كثرة الكلام ينسي آخره أوله» معتذرا لهم عن عدم الإطالة بالكلام بذلك ، لأن كثرة الكلام ينسي آخر الكلام أول الكلام ، بينما التجوز في الكلام والاختصار في الكلام أنفع وأبقى للفائدة وأدوم للخير ، ولهذا أُمر نبينا عليه الصلاة والسلام أن يتجوز في الكلام أي أن يختصر فيه .

وعنوان الترجمة كما عرفنا «التجوز في القول» أي الاختصار في القول ، ومن يطالع مصنفات هذا الإمام أعني شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله يجد أنه في مصنفاته مضى على هذا الهدي القويم والسنن المبارك ؛ فكان يتجوز في الكلام ويختصر في القول وكتبه ليست كتبا مطولة وموسَّعة بل كتب مختصرة وبارك الله سبحانه وتعالى فيها بركة عظيمة نفع بها العباد وصلحت بها العقائد وفُهم بها التوحيد وعُرفت بها السنة ، وأيضا حذر فيها من البدع والخرافات والأباطيل التي ما أنزل الله تبارك وتعالى بها من سلطان بعباراتٍ مختصرة وكلام مختصر وتجوزٍ في القول واختصار فيه ، فنفع الله سبحانه وتعالى بكلامه وقد كان مقتديا في ذلك برسول الله صلوات الله وسلامه عليه .

ثم ختم هذه الرسالة بحمد الله قال: «**آخره**» أي آخر هذا الكتاب «**والحمد لله رب العالمين حمداً كثيراً**» .

ونحمد الله عز وجل الذي منَّ علينا أجمعين بقراءة هذا الكتاب والاستفادة مما فيه ، ونسأله تبارك وتعالى أن يجعل ذلك حجة لنا لا علينا ، وأن يجعل ذلك في موازين حسناتنا أجمعين ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

والله أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .